جسد الطوائف

رواية

رانية فؤاد مرجية

جسد الطوائف

رواية

رانية فؤاد مرجية

الإهداء

إلى جرحٍ صار مرآة،

وإلى دمعةٍ أنجبت مدينة،

وإلى حبٍّ وُلد من رماد الطوائف.

. المقدمة

هذه ليست حكاية ليلى وحدها، وليست شهادة يوسف فقط، بل رواية عن مدينة كاملة حُوّلت إلى جسدٍ مقسوم بين شعاراتٍ ودماء.

في «جسد الطوائف»، أكتب عن العتبة التي صارت مسرحًا للدم والغفران، عن المرآة التي عكست وجوهًا خائفة وأخرى جريئة، وعن حمّامٍ مهجور تحوّل من خرابةٍ إلى بيت إنسان.

هذه الرواية ليست رواية طائفة ضد أخرى، ولا ديانة في مواجهة ديانة، بل هي صرخة: أن الطائفة حين تعلو على الإنسان تقتل نفسها، وأن الجسد حين يُتَّهم يصبح مرآةً للمدينة كلّها.

أكتب عن امرأةٍ حُمّلت وزر مدينة، وعن رجلٍ اختار أن يخون طائفته ليصون قلبه، وعن مدينةٍ لم تعرف بعد أن الغفران أصعب من السيف وأصدق.

«جسد الطوائف» ليست خاتمةً، بل بداية أسئلة:

من يُطهّر من؟

ومن يملك الحق أن يحكم على جسدٍ بأن يكون عارًا أو قداسة؟

وهل يمكن أن تنجو مدينة إذا لم تغفر لنفسها؟

الفصل الأول: زقاقٌ بحجمِ مدينة

حين انطفأ آخرُ مصباحٍ في الحيّ، بدا الزقاق حرفًا مكسورًا في كتابٍ قديم. الجدرانُ تستبقي من النهار ما يكفي لتكشف ندوبها: شعاراتٌ طائفية متقابلة، سهامٌ تُشير إلى جهاتٍ لا تؤدي إلا إلى جدار، أسماءُ شهداء لم يتفقوا بعدُ على معنى موتهم. بين مسجدٍ يُجَرِّب الأذان على مهلٍ، وكنيسةٍ تقيسُ أجراسها بدرجاتٍ مختلفةٍ من الحنين، مشت ليلى تُلامس الندوب بأطراف أصابعها كمن يجسُّ نبضَ وجهه.

قالت في سرِّها:

«المدينةُ تُعلِّمني كلَّ ليلةٍ حروفَها السرّية: السينُ سباب، والصادُ صلاة، والطاءُ طائفة... وأنا حرفٌ يتيم؛ كلما حاول أن يلتحق بكلمةٍ اتُّهِم.»

كانت تحمل كيسَ خبزٍ دافئًا تفوح منه رائحةُ نعناع تُخفي شحَّ العجين. كتفُها اليمنى تميلُ قليلًا لحملٍ اعتادتْه: أبوابٌ تُغلَقُ في وجهها حين تُصبح الشوارعُ «طاهرة» على الورق. وفي كل مساءٍ، تنفضُ عن اسمها ترابَ النهار؛ الاسم الذي عُلِّق عليها كملصقٍ

قديم: «العاهرة». بيتٌ مبنيٌّ من ملح؛ تكفي دمعةٌ ليذوب.

لا تُحبّ ليلى السرد الطويل لأصلِ صمتِها. يكفيها أن تقول: «بعتُ الليلَ لأشتري نهارًا لإخوتي»، ثم تتمّ في سرِّها: «واشتريتُ لنفسي غفرانًا صغيرًا في آخر المساء؛ بحجم قبلةِ أمٍّ لم تعُد».

عند المفترق الضيّق، وقف شابّان مسلّحان، نظراتُهما أحدُّ من السلاح. على كتفِ أحدهما شارةٌ خضراء، وعلى كتفِ الآخر زرقاء؛ لونان يتنازعان جغرافيا الزقاق. قال الأول بخشونةٍ مُدرّبة:

ـــ الهويّة.

ناولته بطاقةً قديمةً تلمع في الضوء الشحيح كعملةٍ مشكوكٍ فيها. تقلّبَتْ بين أصابعه، ثم رفع عينيه:

ـــ ليلى... أهذا اسمُك الحقيقي؟

ابتسمتْ ابتسامةَ حجر:

ـــ أسماؤُنا الحقيقيّة ما يهمسُه الليلُ لنا. أمّا هذه فاسمٌ صالحٌ للنهار.

أعاد البطاقة. مالت شفتا الآخر بخبثٍ خفيف:

ـــ اليوم نذرُ الناسِ نذرًا لطهارةِ الحيّ. لا تتأخّري.

هزّت كتفَها كمن يطرد ذبابةً؛ ومضت. لم تُخبره أن الطهارة التي تُقرِّرها الطوائف كثيرًا ما يُنجِّسها قليلٌ من الدم.

في سوقٍ ليليّ منكمش، بسطتْ عجوزٌ رُمّانًا مكشوفَ القلب. اشترت ليلى حبّةً واحدة، دسّتها في الكيس. قالت العجوز وهي تفرك الأمنيات بين راحتيها:

ـــ الرمانُ يطرد الوحشة.

ـــ والوحشةُ تطردُ الرمان حين يكثر الضيوف، أجابت ليلى.

ضحكت العجوز ضحكةً بنكهة قرفة، وشيّعت خطاها بنظرةٍ تشبه صلاةً على جنازةٍ لا اسم لها.

عند جدار الحمّام المهجور، ملصقٌ جديد: «الطائفةُ أمُّ المدينة». تحت العبارة توقيعُ ميليشيا شابّة لا تحفظ من الأمومة إلا قبضةً مشدودة. فكّرتْ ليلى: «أمٌّ تُطعم أبناءها من جسد ابنتها». من نافذةٍ فوقها، أطلّت يدُ طفلٍ يقضم رغيفًا ساخنًا:

ـــ خذي لقمة.

ـــ أدّخر اللقم للغد يا صغيري؛ الغدُ جائعٌ أكثر، قالت وربّتت على الهواء.

من شُرفةٍ قريبةٍ بدا يوسف. لم تكن تعرف اسمَه، لكنها عرفت ملامحَ من لا يشبه رجالَ الزقاق: وجهٌ هادئ، شالٌ يلقيه كأستاذ فلسفةٍ تاه عن قاعته. بين يديه كتابٌ يقلبه كمن يقلب سيرة عائلته. حين رآها، لم يُطأطئ عينين تعوّدتا الهرب؛ نظر إليها كما يُنظر إلى كلمةٍ مُهمَلةٍ في الهامش لا تستحقُّ الإهمال. همس:

— مساءُ الخير.

أجابت وهي تُصلح خصلةً أفلتت من دبابيسها:

— مساءُ الذين يعرفون لأيِّ شيءٍ تُضاءُ المصابيح.انزلق كتابه. تطايرت أوراقٌ قليلة كطيورٍ تهرب من قفصٍ مهترئ. التقطت ورقةً وقعت عند قدميها؛ فيها سؤالٌ بخطٍّ متعب: «مَن يُنقذ جسدَ المدينة من طوائفها؟» ناولته الورقة. شعرت أنّ السؤال مرآةٌ وُضِعت أمامها: «المدينة تُقسَم على جسدٍ واحد... جسدي».

دخلتِ الحمّام. صار مأواها حين ضاقت البيوت. في الزاوية قنديلٌ شحيحُ الزيت. علّقت ثوبًا أسود على مسمارٍ صدئ، وغسلت من اليوم ما يكفي كي لا يُؤلمها الغد. شقّت الرمان ورتّبت حبّاتها في صحن قصدير،

كأنها ترصّ نجوم سقفٍ خاص بها، وبين كل حبّةٍ وسؤالٍ تُؤجَّلُ الإجابة:

هل يطهر الجسدُ بالتعب أم بالاعتراف؟

هل علَّمتِ الطوائفَ أم تعلّمتِ منها صلاةَ الخراب؟

إن لم تعُدْ، من يسقي أسماءَ إخوتِك في المدرسة؟

وإذا أحبَّكِ رجلٌ خارجَ القطيع، هل يُسعفُ الحبُّ جسدًا مُتَّهَمًا؟

طرقت أمُّ فادي الباب:

— جاؤوا بصندوق تبرّعات «لشرف الحيّ». أعطيتُهم ثمن شرفي: دعوةً لكِ بالستر.

— سترُ الله واسع يا خالتي؛ أمّا سترُ الناس فقصير.

— الناسُ يخافون ليلَكِ.

— وأنا أخافُ نهارَهم أكثر، أجابت وهي تُطفئُ الكلام.

من بعيدٍ يتكاثر هتافٌ يقترب. خرجتْ إلى العتبة. رجالٌ وأعلامٌ ومكبّراتٌ تصرخ: «التطهير طريقُ الخلاص!» مرَّ يوسف، توقَّف عند الباب.

— لا شيء يشبهُ الليلَ أكثرُ من نهارٍ يهتف، قالت.

ـــ ولا أحد يشبه الليلَ أكثرُ من امرأةٍ تُضيء قنديلًا وحدها، قال وقد وضع الكتاب تحت إبطه.

ـــ أبي في المجلس الديني، همس. يقول: الخلاص يبدأ من تطهير الشوارع.

ـــ والقلوب؟

ـــ يتولاها الربّ.

ـــ وهل يتولّى الربّ ما تجاوزتْه أيديكم إلى أجسادنا؟

ارتبك. قال:

ـــ أقرأ عن الغفران هذه الأيام.

ـــ الغفرانُ الذي لا يتّسع لجسدٍ مُدان، فهرسُ طائفةٍ لا غفران.

انفصل ثلاثةُ شبّانٍ عن الحشد. قرأ أحدهم من ورقة:

ـــ باسم شرف الحيّ، نطالب بإغلاق المكان. لا حمّامَ بعد اليوم.

رفعتْ ذقنَها:

ـــ إن أغلقتم الأبواب، يبقى الليلُ مفتوحًا؛ الليلُ ليس بابًا... الليل سؤال.

قهقه آخر:

ـــ أسئلةُ العاهرات لا تُنقذ طائفة.

ـــ ولا الطوائفُ تُنقذ العاهرات؛ وحين يلتقيان يُنجبان مدينةً مكسورة.تراجعوا. من نافذةٍ بعيدةٍ انطلقت تهويدةُ أمٍّ لا تُرى، ففكَّكتْ عضلاتِ الكراهية لحظاتٍ. صاح قائدُهم:

ـــ سنعودُ غدًا ومعنا القرار مختومًا.

ـــ بختمِ الله إنِ استطعتم... لا بخاتم شيوخكم.

عاد الصخبُ إلى شارعٍ أوسع. في الداخل انطفأ القنديل. أشعلته بإبرة عزيمة. تردّدتْ خطواتٌ على العتبة؛ كان يوسف:

ـــ هل أقرأ لكِ شيئًا؟

ـــ اقرأ.

قرأ:

«يُولد الإنسانُ في مدينةٍ مكتوبةٍ بالحبر والدم... ويبحثُ عن لغةٍ ثالثةٍ تصلحُ ما بينهما.»

ثم قال:

ـــ أظنّكِ أنتِ... هذه اللغة.

ـــ ابحثْ مع اللغة عن يدٍ؛ الشعار بلا يدٍ يرتجف.

ـــ أأعودُ غدًا؟

ـــ عُدْ ومعكَ مرآة... لتُبصر المدينةُ وجهَها.

ـــ ما اسمُك؟

ـــ ليلى.

ـــ وأنا يوسف.

ـــ اسمٌ يُحبُّ الحكايات؛ كُن رحيمًا بها.

نصفتْ الليلَ، وأبقتْ النصفَ الآخر في الدفتر. كتبت:

«دفترُ ليلى – صفحة ١»

لا أحتاجُ براءةً من محكمةِ الطائفة؛ أحتاجُ قلبًا يتّسع مثل حمّامٍ قديم: ندخله عُراةَ الشعارات، ونخرجُ متذكّرين أنّ الجسدَ بيتٌ لا يجوزُ اقتحامُه باسمِ أيِّ شيء.

لم ينَمْ يوسف. ظلّ عند النافذة يراقب قنديلَ الحمّام كنجمةٍ وحيدةٍ تعاند سماءً محروقة بالدخان. صدى الهتافات يتكسّر في صدره كزجاجٍ لا يعرفُ كيف يجمعه. كتب في ورقةٍ منزوعةٍ من كتابه:

«أوراقُ يوسف – هامش ١»

أأجرؤ أن أحبّها؟ وهل يُطهَّر الحبّ إذا نطق باسم «العاهرة»؟ أم أنّ الحبَّ وحدهُ ما يطهِّرُ الأسماء؟

في الصباح جلس مع أبيه إلى مائدةٍ يابسة. طوى الأب صحيفةَ «حملة تطهير الحيّ»:

ـــ اليوم يُعلَن القرار. لن تبقى تلك المرأة.

ـــ وهل تُطهَّر الأرضُ بقتلِ امرأة؟

ـــ تُطهَّر حين تُقطَعُ أسبابُ الفتنة؛ والفتنةُ أشدُّ من القتل.

سمع يوسف الآيةَ تُذبح بين الشفتين. ابتلع لقمةً علقتْ في حلقه حتى المساء.

عند الغروب عاد إلى الحمّام. ليلى على العتبة ترتّب صحنَ الرمان.

ـــ كنتُ أعرفُ أنّك ستعود.

جلس إلى جوارها. صمتٌ ثقيلٌ ممتلئٌ بأسئلةٍ لا تُقال.

ـــ أبي يراكِ خطيئة.

ـــ وأنت؟

ـــ أراكِ إنسانةً تبحث عن معنى. تُخطئين... لكن الخطأ طريقٌ لا ختمٌ على الجبين.

ـــ وإن عرفوا؟

ـــ أنا خائنٌ للطائفة منذ سألتُ: لماذا نُقسِّمُ الله بين الأحياء؟

دخلتْ وأشارت له بالدخول. المكانُ رطبٌ تفوحُ منه رائحةُ الماضي. ناولتْه دفترًا صغيرًا:

ـــ أكتبُ فيه منذ بدأتُ أبيعُ جسدي. اقرأ.

قرأ:

«بعتُ جسدي يومًا، لكن قلبي ظلّ ينتظر يدًا لا تشتري... بل تمسكُ كيلا أسقط.»

ثم:

«العاهرةُ ليست جسدًا؛ العاهرةُ مدينةٌ أُنهكتْ: تستقبلُ الجميع، ويلعنُها الجميع.»

قال:

ـــ لستِ عاهرة... أنتِ مرآةُ المدينة.

سقط جدارٌ داخليّ، وتدحرجتْ دمعةٌ لم تمسحْها.

من خارجٍ، يشتدّ الحشدُ والطبول.

ـــ غدًا لن أكون هنا، همستْ ليلى. سيهدمون المكان باسم الطهر.

ـــ وغدًا... سأقفُ بينهم. لا أدري أأهتفُ معهم أم ضدّهم.

ابتسمتْ:

ـــ الغدُ يكشف: من يملك قلبًا، ومن يملك شعارًا.

وانطفأ القنديلُ كأنهُ يخافُ من الضوء القادم.

مع الفجر ارتجّت المدينةُ على قرع الطبول: «التطهير سبيلُ الخلاص!» الأطفال يركضون خلف الإيقاع، لا يفهمون المعنى. كان يوسف في قلب الحشد يحملُ لافتةً سلّمها له أبوه: «لن يحيا الجسدُ النجس بيننا». ارتجفت اللافتة لأنّ قلبه لا يجد موطئًا.

تقدّم الجمع نحو الحمّام. عند الباب، ليلى بثوبٍ أسود، ووجهٍ بلا زينة، كأنها قرّرت أن تكون «امرأةً عاريةً من كلِّ شيءٍ إلا الحقيقة».

صاح القائدُ الديني:

ـــ باسم الشرف والطائفة، غادري. المكانُ يُهدم اليوم.

قالت بهدوءٍ يثيرُ الدهشة:

ـــ اهدموا الجدران؛ هل تهدمون ما في داخلكم؟

تململ الحشد. همس الأب ليوسف:

ـــ ارفعِ اللافتة.

نظر يوسف إلى الورقة كحجرٍ حادّ. تذكّر دمعةَ أمس، وعبارة «العاهرةُ مدينة». خفَضَ يده.

ـــ ألن تُطيعني؟

قال بصوتٍ سمعه الجميع:

ـــ لا أستطيع أن أهتف ضدَّ امرأة... لأنكم قرّرتم أنها نجسة.

ارتفعت الصرخات: «خائن! ضال!» وأصواتٌ أخرى صامتة.

رفعتْ ليلى يدَها:

ـــ لستُ ما تزعمون. أنا أنتم. مررتم من هنا سرًّا أو جهرًا؛ تستبيحون جسدي وتلعنونه في الوقت نفسه. أنا مرآةُ هذه المدينة. إن قتلتموني قتلتم صورتكم.

سقط حجرٌ في ماءٍ راكد.

ـــ كفى! صاح الأب. الآن نُطهّر المكان.

اندفع، فاندفع يوسف أمام ليلى وفتح ذراعَيه درعًا. تلاطمت الأصوات.

ـــ الطهارةُ ليست قتلَ امرأة. الطهارةُ أن نغفر لبعضنا وأن نكفَّ عن تقسيم الله. إن كانت «خطيئة»، فنحن صنعناها. وإن كان ذنبًا فهو ذنبُ المدينة.

انشقَّ الجمعُ بين مُروِّعٍ ومُرتجف. وعلى حافةِ المسافة، وقعت ورقةٌ صفراء عند قدمَي ليلى كانت قد انزلقت من جيب أحدهم:

«غدًا عند الغسق... يُعلَن القرار.»

رفعت ليلى رأسَها إلى سقف السماء المتهتك؛ خارطةُ بلادٍ لم تُرسَم بعد. أعادت الرمانةَ إلى الصحن، وأغلقت الدفتر على جملةٍ واحدة:

«إن كان لا بدَّ من قرار، فليكن قرارُ الجسد: لا طائفةَ تعلو على إنسان.»

وانتهى اليومُ الأول... وابتدأت الحكاية.

الفصل الثاني: الحمّام – بيت الإنسان

الحمّام المهجور لم يكن جدرانًا رطبة فقط. كان ذاكرةً جماعية تُطاردها الأحياء وتخافها الطوائف. قبل أن يصير مأوى ليلى، كان مكانًا يعرفه الجميع: النساء يدخلنه بأطفالهن كل خميس، الرجال يلتقون فيه ليتعرّفوا على بعضهم بلا شارات، والعجائز يتركون على بخاره أسرارهم كغبارٍ يذوب.

لكن الحروب الصغيرة، التي تتغذّى على الكراهية الكبيرة، حوّلته إلى خراب. الأبواب خُلعت، الرخام تكسّر، السقف تشقّق. الطوائف المتنازعة لم تتفق يومًا على إعادة ترميمه؛ فكلّ واحدة رأت في الحمّام الآخر "نجاسةً قديمة"، وكلّ واحدة فضّلت تركه أنقاضًا بدل أن تعترف أن الجسد بيتٌ واحد لا يُقسَّم.

ذاكرة ليلى

حين دخلت ليلى إلى الحمّام أول مرة، لم تكن تبحث عن مأوى فقط. كانت تبحث عن مرآة تُعيد إليها وجهها بعيدًا عن أعين الناس. جلست على البلاط البارد، وأسندت ظهرها إلى جدارٍ متشقق، وشعرت أنها ليست وحدها:

الهمسات القديمة، ضحكات النساء، حكايات الأطفال، كلّها بقيت معلّقة بين الحجارة.

في كل زاوية، رأت ظلاً من طفولتها: أمها تقودها إلى المغطس، تسكب الماء على رأسها وتقول:

ـــ الجسد يا بنتي، كتابٌ نغسله لنقرأه من جديد.

لكن الأم رحلت، والكتاب صار متّهما. الجسد الذي كان بيتًا صار ساحةً يُلوّحون بها.

الإخوة

ليلى لم تكن وحدها في هذه المدينة. خلفها إخوة صغار ينتظرون رغيفًا على المائدة. كل صباح، توقظهم، تعدّ لهم ثياب المدرسة، وتضع في حقائبهم ما يتيسّر من خبزٍ وشاي بارد. لم يعرفوا شيئًا عن الليل الذي تبيعه أختهم. لم يعرفوا أن كل قلم رصاص في أيديهم كان ثمنه جرحًا على قلبها.

في دفترها كتبت:

«أبيع الليل كي لا يُباع إخوتي. وإن سألني أحد: لماذا؟ أقول لأن الأمومة ليست رحمًا فقط، بل يدًا تحمي حتى لو كانت مجروحة.»

يوسف والبيت الآخر

في بيتٍ آخر، لم يكن الحمّام مأوى يوسف. بل كانت له غرفةٌ صغيرة على سطح بيتٍ كبير، يملكه أبوه شيخ الطائفة. جدران الغرفة مليئة بالكتب: فلسفة، تاريخ، شعر، إنجيل وقرآن. يوسف لم يكن مثل أبيه. كان يبحث عن الله في الحروف أكثر مما في الشعارات.

كل ليلة، يسمع أبيه يتحدث في المجلس: «الطائفة فوق كل شيء. هي الحصن. من خانها خان الله.»

لكن يوسف كان يكتب في دفتره:

«من خان الإنسان خان الله أولاً.»

كان يعيش بين عالمين: طائفة تُطالبه بالطاعة، وقلبٌ يطالبه بالرحمة.

الحيّ في النهار

النهار في الحيّ ليس كليلٍ يُغطي العورات. في النهار، تُرفع الشعارات، تُطبع المنشورات، وتُعلن حملات "التطهير". الأطفال يلهون لكنهم يردّدون ما يسمعونه من الكبار: «هذه نجسة... ذاك خائن... هذا شهيد... ذاك عميل.»

النهار مدرسة قاسية يتعلم فيها الصغار لغةً بلا حبّ.

ليلى كانت تعرف ذلك. كانت تمشي في النهار بخطى سريعة، كأنها ترفض أن يمنحها الضوء فرصةً ليتهمها. أما في الليل، في الحمّام، كانت تجد نفسها.

صوت يوسف

في مساءٍ آخر، عاد يوسف إلى الحمّام. وقف عند العتبة، لم يجرؤ على الدخول. قال:

ـــ سمعتُ أبي يقول إن الغد يحمل قرارًا بترحيلك.

ابتسمت:

ـــ وهل تُرحَّل المرايا؟ قد يرحّلون الجسد، لكن الوجه يبقى في عيونهم.

ـــ أخاف عليكِ.

ـــ لا تخف عليّ، خف على نفسك.

ـــ نفسي؟

ـــ لأنك بدأتَ ترى. ومن يرى لا يهنأ له نوم.

جلسا متقابلَين. قالت ليلى:

ـــ الجسد بيت، والحمّام بيت، والمدينة بيت. لماذا تصرّون على تقسيم البيت الواحد؟

قال:

ـــ لأنهم يخافون أن يروا أنفسهم عراة.

ـــ وأنا؟

ـــ أنتِ المرآة التي تذكّرهم بذلك.

دفتر ليلى

في تلك الليلة، كتبت في دفترها:

«الحمّام ليس مأوى، بل شاهد. كل حجرٍ فيه يشهد على جريمةٍ ارتُكبت باسم الطائفة. هنا اغتسل الناس من عرقهم، ولم يعرفوا أن عرقهم أطهر من دماء حروبهم. هنا كانوا متساوين في العُري، فلماذا قرروا أن يتمايزوا في الشوارع؟»

وأغلقت الدفتر على سؤالٍ واحد:

«هل يمكن لامرأةٍ ملعونة أن تُصبح بيت إنسان؟»

النهاية المفتوحة للفصل

في الخارج، كان الحشد يزداد. منشورات تُوزّع، طبول تُقرع، وأصواتٌ ترتفع: «التطهير غدًا... التطهير غدًا.»

أما في الداخل، فقد أشعلت ليلى قنديل الحمّام، وجلست إلى جوار يوسف، كأنهما يُراهنان على شعلةٍ صغيرة ضد عاصفة.

قال يوسف وهو يتأمل اللهب:

ـــ إذا انطفأ هذا القنديل، هل يبقى للبيت حياة؟

أجابت:

ـــ يبقى للبيت قلب. وما دام القلب يخفق، لن تستطيع الطوائف أن تهدمه.

الفصل الثالث: يوسف بين الأب والمدينة

كان بيتُ الشيخ، والدِ يوسف، بيتًا يعرف كيف يُخفي صوته. جدرانٌ عالية، ستائرُ ثقيلة، مكتبةٌ ضخمة لا يُستعار منها كتاب. في الصباح، تمتلئ المائدة بما تيسّر من خبزٍ وزيتٍ وزعتر، وتتمتم الشفاه بآياتٍ مجتزأةٍ على عجل، قبل أن يتفرّق أهل البيت كلٌّ إلى طائفته الصغيرة داخل الطائفة الكبيرة.

جلس يوسف قبالة أبيه. كان الشيخ يطوي الصحيفة على عنوانٍ عريض: «اليوم... قرار تطهير الحيّ». لم يرفع عينيه وهو يقول بنبرةٍ من اعتاد إصدار الأحكام:

— سترافقني إلى المجلس. الشابّة تلك لا بدّ أن تُرحَّل. الناس ينتظرون كلمةً حاسمة.

ابتلع يوسف ريقه:

— والكلمة الحاسمة... أهي كلمةُ الله أم كلمةُ الخوف؟

ارتفع حاجب الشيخ:

ـــ الخوف نعمةٌ تحفظ الجماعة. من ادّعى الشجاعةَ منفردًا، شقَّ الصفّ.

ـــ والصفّ... هل هو أقدس من الإنسان؟

أطبق الشيخ الصحيفة كما يُطبَق بابُ حديد:

ـــ لا تُكثر فلسفةً، اكتب الصياغة النهائية للبيان، أنت أحسننا قلمًا.

المجلس

قاعةٌ مفروشة بسجادٍ كثيف يحبس الخطوات. وجوهٌ تُضيئها خشونةُ الميكروفون، وشبابٌ بصدورٍ نافرة تتدلّى على أذرعهم شاراتٌ متقابلة. اعتلى الشيخ المنصّة، يضرب بعصاه على الخشب ضربًا يُترجم الإيقاعَ في صدره إلى قانون.

ـــ أهلَ الحيّ الكرام، المدينةُ جسدٌ مريض. والحمّامُ بؤرةُ العدوى. إذا أردنا خلاصًا، فعلينا باستئصال العِلّة.

ارتفعت همهماتُ استحسانٍ تشبه قرقعة أوانٍ فارغة. نظر الشيخ إلى ابنه إشارةً إلى الورقة. وقف يوسف على استحياءٍ، يقرأ البيان الذي صاغه في الليل وهو يختنق من كلّ جملة:

«باسم شرف الحيّ... يُغلق الحمّامُ المهجور فورًا، وتُرحَّل المرأةُ التي اتّخذته وكرًا للفتنة. من يخالف، خائنٌ لطائفته.»

كان يُقرأ وهو يستمع إلى سقوط شيءٍ في داخله. كلّ كلمةٍ كانت حجرًا آخر في جدارٍ يُبنى بينه وبين قلبه.

بعد الجلسة، جاءه شابٌّ من الميليشيا، ابتسامةٌ حادّة تلمع على فمه:

ـــ قلمك سيفنا يا أستاذ.

ابتسم يوسف ابتسامةً لا تصل إلى العينين، وشعر أنه طُعن بسيفٍ صاغ نصله.

سطحُ البيت

في الغروب، صعد يوسف إلى سطح البيت حيث غرفته الصغيرة. المدينة من هنا تبدو أقل عدوانية: أسطحٌ متلاصقة، سلال غسيل، عصفور يجرّ ذيله على هواءٍ أكثر رحمة من البشر. فتح دفتَرَه على صفحةٍ بيضاء، وكتب:

«أوراق يوسف – هامش ٢»

من يكتب بيانًا يشرعن إقصاءَ امرأة، هل يطهّر اللغة أم يلوّثها؟ أيّهما أولى بالدفاع: الله أم من يُتاجر باسمه؟ وإذا

كانت الطائفة بديلًا عن الإيمان، فما اسم هذا الدين الجديد؟

قلب الصفحة، فهوت من جيبه ورقةٌ صغيرة ـــ بطاقة دعوة من المجلس: «الساعة السابعة، إعلان القرار عند الحمّام». وضعها على الطاولة كمن يضع صخرةً على صدره كي يختبر قدرته على التنفّس.

الأب والابن

دخل الشيخ دون أن يطرق. عينه تقع على الأوراق، على كتبٍ لكتّابٍ لا يحبّهم، على مرآةٍ صغيرة اشتراها يوسف من سوقٍ جانبيّ.

ـــ ما هذه المرآة؟

ـــ هديّة... للمدينة.

ـــ المدينة لا تحتاج مرايا؛ تحتاج انضباطًا.

ـــ بل تحتاج أن ترى وجهها.

ـــ سترى وجهها حين تُصفَّى من الشوائب.

ـــ وهل الإنسانُ شوائب؟

تخشّب الجوّ. وضع الشيخ عصاه على الطاولة وقال ببطءٍ متعمّد:

ـــ غدًا سنعلن القرار، وستقف إلى جواري. إن وقفتَ ضدي، لا بيت لكَ هنا.

ـــ لا بيتٌ لابنٍ يُخالف أباه؟

ـــ لا بيت لمن يخالف طائفته.

كان يوسف يعرف أن الطائفة عند أبيه بيتٌ أكبر من البيت. لكنه كان يعرف أيضًا أن البيت الذي يُغلق بابه على إنسانٍ واحد، ليس بيتًا... بل قفص.

الكتب التي تتكلم

نزل يوسف إلى المدينة. مرَّ بمكتبةٍ صغيرة على الزاوية. استوقفته مخطوطةٌ بلا عنوان، على غلافها جملةٌ بخطٍّ مائل: «الغفران أجرأُ من السيف». قلب الصفحات، فأحسّ أن الكتاب يلمس كتفه الذي لم يُجرح بعد. اشترى المرآة الأكبر ـــ دائرية بإطارٍ خشبي، وكتابًا، ومِحبرتين.

في الطريق إلى الحمّام، كان يمرُّ على وجوهٍ يُشبه خوفُها بعضها. طفلٌ يركض، عجوزٌ تسعل، امرأةٌ تخبز على حجرٍ صغير ـــ هذه المدينة التي يريدون تطهيرها... من ماذا؟ من صورها؟

عند العتب

وجد ليلى على العتبة تنظّف البلاط بحفنة ماءٍ وصبر. قال وهو يرفع المرآة:

ـــ وعدتِني أن أجيءَ بمرآة.

ابتسمتْ:

ـــ والمرايا حين تُرفع، لا تُطفئ النارَ لكنها تُشير إلى مكانها.

دخل. علّقا المرآة على مسمارٍ قديم في صدر المدخل. مرَّ أوّلُ مارٍّ، نظر إلى انعكاسه، ارتبك كمن رأى جرحًا كان يُخفيه تحت قميص. قالت ليلى:

ـــ المجالس تُصدر قراراتٍ ضدّ الأجساد، والمرايا تُصدر قراراتٍ ضدّ الأكاذيب.

جلسا في ركنٍ بارد. قال يوسف:

ـــ أبي... سيعلن القرار الليلة.

ـــ والقرار؟

ـــ ترحيلكِ وهدم المكان.

ـــ يهدمون الجدران كلّ يوم، أين الجديد؟

ـــ الجديد أنني... لن أقف إلى جواره.

ـــ ستقف إلى جوار نفسك إذن. انتبه: الوقوف قريبًا من المرآة يوجع.

دفتر ليلى

ناولته دفتَرها. على الصفحة الأولى بخطٍ ثابت:

«دفتر ليلى – صفحة ٢»

الجسد كتابٌ لا ملكيةَ فيه لأحد. من يفتح الصفحةَ الأولى يجد طفلةً تُعلّمها أمّها أسماءَ الماء. من يفتح الصفحةَ الأخيرة يجد امرأةً تبحث عن معنى للغفران. بين الصفحتين... كانت الطوائف تقرأ علينا بصوتٍ عالٍ، وتُسكت قلبنا حين يحاول القراءة بصوته.

قرأ يوسف، وشعر أن الكلمات تتشكّل في حلقه كغصّةٍ تمنع الهواء عن قلبه.

ـــ هل تحلمين؟

ـــ أحلم ببيتٍ يدخلُه الجميع بلا شارات، ويخرجون منه بلا أحكام.

ـــ بيتٌ بلا طوائف؟

ـــ بل طوائف بلا سكاكين.

نصّ لم يُلقَ بعد

أخرج يوسف ورقةً مطويّة.

ـــ هذه مسوّدةٌ لنصّ كنتُ أريد قراءته في المجلس، ثم جبنت.

قرأ بصوتٍ خافت:

«مسوّدة بيان – غير صالحة للاستخدام الرسمي»

لسنا نطهِّر المدنَ حين نطردُ امرأةً، نطهِّرها حين نكفّ عن استعمال أجساد النساء حقلَ تجاربٍ لأمراضنا. الجسدُ ليس عدوّ الطائفة، الجهلُ عدوّها. والخوفُ يلبس أقنعةً كثيرة، أخطرها قناعُ الدين. إن أردتم مدينةً صالحةً للعَيْش، أعيدوا إليها حمّامَها: مكانًا يغتسل فيه الناسُ من غضبهم أيضًا، لا من عرقهم فحسب.

سكت. قالت ليلى:

ـــ هذا البيان يُشبهك. لماذا لم تُلقِه؟

ـــ لأن أبي لا يحبّ أن يُصاب ابنه.

ـــ ولأن الابن لا يحبّ أن يُصاب قلبُ أبيه.

ـــ وهل من طريقٍ ثالث؟

ـــ نعم: أن تُصاب الكذبةُ في كليهما.

ابتسم رغم الوجع. المرآة تعكس ابتسامتهما وتضاعفها، كأنها تقترح احتمالًا آخر أن يكون العالم أقلّ قسوة.

شبّاك الأب

لم يكن الشيخ بعيدًا. رجلٌ لا يثق بقلبٍ قرّر أن يراقبه. وقف عند زاويةٍ مقابلةٍ للحمّام، يختبئ خلف عمودٍ حجريّ، يرى ابنه يعلّق المرآة، والمرأة تقف إلى جواره. عضّ على شفته. قال في نفسه: «الولدُ إذا مالَ... باعه الميلُ كلّه.» أرسل رسالةً قصيرة لأحد الشبان: «استعدّوا للإعلان. الليلة تُهدمُ البؤرة.»

المدينة في المرآة

قبل الغروب بقليل، تجمّع مَن تجمّع أمام المرآة. وجوهٌ من كلّ الطوائف: رجل دينٍ يراقب من بعيد، بائعة رمان تشبك أصابعها دعاءً صامتًا، أطفال يضحكون على أشكال أنوفهم، شابّ ينظر طويلًا ثم يطأطئ رأسه كأنه يقرأ اعترافًا مكتوبًا على جبينه.

رفعت ليلى صوتها بلا صراخ:

— من أراد أن يرى «العاهرة»، فليتقدّم.

تقدّم رجلٌ، فإذا وجهه في المرآة. ضحك بعضهم، غمغم آخرون. قالت:

ـــ هذه أنا... وهذه أنتم. المرآة لا تكذب. إذا رأيتُ وجهي قاسيًا، أصلحه بالرحمة. إذا رأيته خائفًا، أعلّمه الشجاعة. إذا رأيته ملطّخًا بالعار، أسأل: من لطّخه؟ أنا وحدي... أم المدينة كلّها؟

سقطت كلمة «المدينة» ثقيلةً في الحلق الجماعي. كانت المرآة تُقسّم الحشد إلى نصفين: نصفٌ يرى نفسه، ونصفٌ يفتّش عن حجر.

بين الأب والمدينة

وصل الشيخ في الوقت المحدّد. خلفه شباب يحملون مشاعل، وورقة القرار مختومة. رفع عصاه، وتقدّم خطوةً. أراد يوسف أن يصرخ: «لا»، لكن فمَه كان ممتلئًا بملحٍ عجوز يسمّى الخوف.

قال الشيخ:

ـــ باسم شرف الحيّ ـــ

قاطعه يوسف:

ـــ باسم الإنسان أولًا.

تجمّدت الألسنة لحظة. استدار الأب نحو ابنه. لم يرَه صغيرًا كما كان؛ رآه مرآةً تمشي.

ـــ اخرس يا يوسف.

ـــ لن أُسكت قلبي، يا أبي.

مدّ الشيخ يده إلى الورقة ليقرأ القرار، فسبقته ليلى بخطوة:

ـــ قبل قراركم، اسمحوا لي بكلمة.

ـــ لا كلمة لعاهرة.

ـــ بل لكلّ إنسانٍ كلمة. وأنا... لستُ اسمًا في أفواهكم. أنا امرأة.

رفعت الدفتر وقرأَت بصوتٍ واضحٍ جملةً واحدة:

ـــ «لا طائفةَ تعلو على إنسان.»

انشقّ الحشد بين من صفّق بخجلٍ ومن شهق غضبًا. ارتفعت حجارةٌ قليلة، كأن الهواء نفسه ألقىها. اعترض يوسف حجرًا بساعده، فشعر بلسعته تتدلّى كعقربٍ من جلده. لم تكن طعنةً بعد؛ كانت مقدّمةً لدمٍ يعرف طريقه.

قال الشيخ بصوتٍ متعبٍ من شدّته:

ـــ الليلة يُهدم المكان. من يُخالف، عدوّ الجماعة.

ـــ ومن يهدم قلبًا... عدوّ الله، قال يوسف.

ـــ اللهُ يُطاعُ بطاعة الجماعة.

ـــ واللهُ يُعصى حين تُعبدُ الجماعة.

تلاقت العيون كسيوفٍ مصقولة. المرآة ترجف على المسمار. ليلى ترفع يدها لتثبّت الإطار، ويوسف يضع كفّه الأخرى. للحظةٍ قصيرةٍ، بدت المرآة كقمرٍ جديدٍ وُلد فوق بابٍ قديم.

ما قبل الانفجار

انسحب الشيخ خطوةً وقلبه يرعد. همس لأحد الشبان:

ـــ غدًا الفجر. بلا إعلان.

أومأ الشابّ وابتسم ابتسامةً تُشبه قرارًا نهائيًا.

لم يسمع يوسف الهمس، لكنه قرأه في عيونهم. التفت إلى ليلى:

ـــ لا تنامي هنا الليلة.

ـــ لو غادرتُ... انتصر القرار قبل صدوره.

ـــ النصر أن تبقي على قيد الحياة.

ـــ والحياة؟

ـــ أن نكمل هذه الجملة... معًا.

نظرت إلى المدينة في المرآة. وجدت وجوهًا قلقة، ووجوهًا غضبى، ووجوهًا اتّقدت فيها شرارةٌ صغيرة،

كأن كلمة «إنسان» بعثت في الحجر حنينًا قديمًا إلى اللحم.

مسوّدةٌ ثانية

عاد يوسف إلى سطحه في تلك الليلة، والمدينة تحتُه تتنفّس بصعوبة. كتب في الدفتر:

«أوراق يوسف – هامش ٣»

أبي يريد أن يخلّص الله من الناس. وأنا أريد أن أخلّص الناس من الذين يحتكرون الله. هل الغفرانُ أقوى من الطعنة؟ سأختبر. هل يمكن للمرآة أن توقف هدمًا؟ سأعلّقها كلّما كُسِرَت. إن كانوا سيأتون فجرًا... فلتكن لنا فجرٌ آخر.»

ثم قصَّ نصف البيان الرسمي، وأعاد صياغته لنفسه:

«باسم الشرف الحقيقي، شرف الإنسان، يُعلن أن الحمّام بيتٌ للجميع، وأن الجسد ليس ساحةً لإذلال الطوائف، بل مكانٌ نغتسل فيه من خوفنا.»

خبّأ الورقة في جيبه. عَصَر الكتف الذي أصابه الحجر حتى انقطعت لسعةُ الدم وارتفع ألمٌ أوضح — ألمُ المعنى حين لا يجد بيتًا.

خاتمة الفصل

قرب الفجر، أطفأ الشيخ مصباح غرفته، وهو يهمس للظلال:

ـــ غدًا يُهدم البؤس.

وعلى سطحٍ قريب، أشعل يوسف شمعةً صغيرة ووجّهها نحو الحمّام، كأنّ النور يعرف طريقه إذا سُمِّي باسمه.

في العتبة، جلست ليلى تُصلح المسمار الذي يعلّق المرآة. وضعت تحتها صحنَ رمانٍ ودفترًا مفتوحًا على جملةٍ لا تنتهي:

«إذا هُدِم الجدار، لا تهدموا القلب.»

وتسلّل الصمت من بين الأزقّة، يحمل في أطرافه وقع خطواتٍ بعيدة لرجالٍ لن يأتوا حاملين الله... بل ختمًا باسمِه.

...وهنا تتقدّم الحكاية إلى فجر القرار.

الفصل الرابع: فجر القرار

المدينة تستيقظ على طبول

لم يكن الفجر فجرًا عاديًّا.

المدينةُ استيقظت قبل أن يمدّ الضوء أصابعه إلى الأزقة. الطبول سبقت شروق الشمس، والطبول ليست موسيقى، بل إعلان حرب. كل بيتٍ ارتجف، كل نافذةٍ أُغلقت نصفها، وكل امرأةٍ خبّأت أبناءها في صدورهن قبل أن تخبئهم في الغرف.

الهواء مشبع برائحة دخان قديم، دخان لا يأتي من نارٍ جديدة، بل من حرائق لم تُطفأ أصلًا.

على الجدار قرب المسجد، ملصقٌ أبيض طُبعت عليه كلماتٌ حاسمة:

«اليوم يُطهَّر الحيّ من العار.»

لم يُذكر اسم، لكن الجميع عرف أن المقصود «ليلى» والحمّام الذي صار ملاذها.

أم فادي

في بيتٍ ضيق، جلست أم فادي على سجادةٍ قديمة، ترتّب خصلات شعرها ببطءٍ كما لو أنها تستعد لجنازة. نظرت إلى صور أبنائها المعلّقة على الحائط؛ اثنان قُتلا في معارك الطائفة، وثالث ضاع في الغربة. تمتمت:

ـــ كم دفعتُ من شرفٍ وثمنٍ، وما زالوا يطلبون المزيد؟

سمعت أصوات الهتاف تقترب:

«التطهير سبيل الخلاص!»

قامت وهي تتوكّأ على عصاها، وخرجت إلى الشارع. لم تكن تعرف إن كانت ستدافع عن ليلى، أم عن بقايا نفسها.

بائعة الرمان

في السوق، عجوز الرمان رتّبت ثمارها على الأرض بعناية. كل حبّة مفتوحة القلب، حمراء كالدم. حين مرّ شبّانٌ يحملون المشاعل سألوها:

ـــ أما زلتِ تبيعين الرمان؟ اليوم يوم الطهر لا السوق.

قالت بابتسامةٍ مكسورة:

ـــ الطهرُ الحقيقي... أن لا تجفّ القلوب. والرمان ماء القلب.

أحدهم بصق بقربها ومضى. جمعت بصرها في حبّةٍ واحدة وقالت لها:

ـــ ابقي شاهدة يا ابنتي، فالدمع لا يكفي.

يوسف

في سطح بيته، لم ينم يوسف. ظلّ يراقب قنديل الحمّامٍ من بعيد. حين سمع الطبول، عرف أن الفجر صار فخًّا. ارتدى معطفًا أسود، وضع الدفتر في جيبه، وخرج. عند الباب، أوقفه أبوه:

ـــ إلى أين؟

ـــ إلى الحقيقة.

ـــ الحقيقة تُقال على منابر الطائفة، لا على عتبات العاهرات.

ـــ الحقيقة تُقال حيث يوجد قلب... والقلب هناك.

مشى دون أن ينتظر إذنًا. الأب لم يلحقه. فقط قال في سرّه: «الولد ضلّ الطريق. سيعود مكسورًا أو لن يعود.»

ليلى

في الحمّام، لم تُغلق عينًا. قضت الليل تكتب في دفترها وتعيد ترتيب صحن الرمان. ارتدت ثوبًا أسود بسيطًا، بلا زينة. حين سمعت الطبول، ابتسمت ابتسامةً حزينة:

ـــ أخيرًا جاء الفجر الذي وعدوني به... فجرٌ يشبه قبرًا.

أشعلت القنديل، علّقت المرآة، وجلست على العتبة تنتظر. لم يكن في عينيها خوف. كان فيهما فراغ واسع كالبحر.

المواجهة

اقترب الجمع. رايات، مشاعل، أصواتٌ غليظة، شبابٌ يلوّحون بالبنادق، شيوخٌ يرفعون عصيّهم كأختام. على رأسهم الشيخ، والد يوسف، صوته يسبق خطاه:

ـــ اليوم يُطهَّر الحيّ.

وقفت ليلى. لم تهرب، لم تتراجع. رفعت الدفتر وصاحت:

ـــ اكتبوا: هذا جسدي، وهذه مدينتكم. إن قتلتموني، قتلتم صورتكم.

ارتبك الحشد. بعضهم بصق، بعضهم رفع حجرًا.

فجأةً تقدّم يوسف. وقف أمام ليلى، مدّ ذراعيه كدرع. صرخ:

ـــ لن تهدموا إلا قلوبكم!

صوت النساء

من بعيد، جاء صوت أم فادي:

ـــ كفى! كم من النساء تُقتلن باسم الشرف؟

ورفعت عصاها فوق رأسها، لا لتضرب، بل لتُقسم: «شرفي دفعتُه مرتين... ولن أدفعه ثالثة.»

بائعة الرمان اقتربت هي الأخرى، حملت حبّة مفتوحة، رفعتها في الهواء وقالت:

ـــ هذا قلب المدينة... هل تطعنونه أيضًا؟

الجموع ترددت. صرخة امرأة عجوز أثقل من مئة هتاف شاب.

الانفجار

لكن بين الحشد، شابٌّ متحمّس لم ينتظر. اندفع بسكين. في لحظةٍ خاطفة، ارتمى يوسف أمام ليلى. اخترقت الطعنة كتفه. صرخت ليلى واحتضنته. ارتجف الشاب وتراجع.

السكين سقط. الهتاف انكسر. الدم سال على عتبة الحمّام كختمٍ أحمر لا تستطيع أي طائفة أن تمحوه.

ما بعد الطعنة

سقط الصمت على الحشد. الأب تقدّم، صوته يرتعش:

— لقد خانني ابني! خان طائفته!

لكن أحدًا لم يُصفّق. العيون كانت مسمّرة على الدم.

رفعت ليلى رأس يوسف على حجرها وصاحت:

— اكتُبوا: الطهارة لا تُصنع بالقتل. الطهارة أن نغفر لبعضنا.

نهاية الفصل

تراجع الجمع بخطواتٍ مرتبكة. بعضهم حمل حجارةً ولم يجرؤ أن يرمي. آخرون أسقطوا راياتهم. الطبول صمتت.

في تلك اللحظة، أدركت المدينة أن الفجر لم يكن تطهيرًا ولا خلاصًا. كان جرحًا جديدًا كُتب على جسدها: دم يوسف، وصوت ليلى، وصرخة العجائز.

على جدار الحمّام، ارتسمت كلمة غير مكتوبة:

«إنسان.»

الفصل الخامس: دم على العتبة

الصرخة الأولى

لم يكن صوت ليلى مجرد صرخة امرأة، بل كان صوت مدينةٍ تُذبح مرّةً أخرى.

حين سال دم يوسف على بلاط الحمّام، بدا وكأن العتبة نفسها تئنّ.

السكين على الأرض، واليد التي طعنَت ترتجف أكثر من الجسد المطعون.

الشمس التي لم تكتمل بعد، توقفت عند حدّ الغيم، كأنها تخاف أن تُضيء ما يحدث.

يوسف بين الموت والحياة

وضعت ليلى رأس يوسف على حجرها. الدم يتسرّب من كتفه، يرسم خطوطًا حمراء على ثوبها الأسود.

— يوسف... لا تنم.

ابتسم ابتسامةً ضعيفة:

— لم أنم... أنا فقط أرى بوضوح.

ـــ ترى ماذا؟

ـــ أن الدم... لا يطهّر مدينة. الغفران وحده يفعل.

حاولت أن تضغط على جرحه بقطعة قماش، لكن الدم كان عنيدًا.

همست:

ـــ لن أدعك تموت... لن أعطيهم هذا الانتصار.

الأب

كان الشيخ واقفًا، عصاه ترتجف بين يديه.

ـــ يا بني... لماذا فعلت هذا؟ لماذا جعلت نفسك درعًا لامرأةٍ عاهرة؟

رفع يوسف عينيه، صوته بالكاد يخرج:

ـــ لأنها... إنسانة.

ـــ أنت تفضحني أمام الناس.

ـــ بل أفضح الطائفة التي جعلتك تعبدها أكثر من الله.

ارتجف صوته وانكسر. لأول مرة، بدا الشيخ رجلاً لا شيخًا.

انقسام الحشد

الناس وقفوا على مسافة، منقسمين إلى نصفين:

نصف يصرخ: «خائن! دمّه نجس مثلها!»

نصف يهمس: «لكنّه ابننا... ودمه دمنا.»

بائعة الرمان رفعت حبّةً مفتوحة وقالت:

ـــ هذا قلب المدينة، وها هو ينزف بين أيديكم.

أم فادي رفعت عصاها:

ـــ أولادي ماتوا باسم الطائفة، ولم يَعد شيء. اتركوا هذا الجيل على الأقلّ يتنفّس.

الكلمات كسرت جدار الصمت أكثر من الطعنة.

في الداخل

حملت ليلى يوسف إلى داخل الحمّام. وضعت جسده قرب القنديل. الجدران العتيقة امتلأت برائحة دمٍ ممزوجٍ بالدخان.

أحضرت ماءً قديمًا في وعاء، غسلت كتفه، همست:

ـــ هذا ليس دمك فقط، هذا دم المدينة.

أمسك يدها:

ـــ اكتبي... أنني أحببتكِ رغم الطائفة.

ـــ وسأكتب أن الطائفة سقطت هنا... على هذه العتبة.

صدى الدفاتر

فتحت ليلى دفترها وكتبت بيد مرتجفة:

«اليوم... سقط القناع. الطائفة لم تقتلني وحدي، بل طعنت نفسها. الدم الذي سال على العتبة هو مرآة. مَن نظر فيه، رأى وجهه.»

يوسف، بصوتٍ متقطع، طلب منها دفتره. فتح على صفحة جديدة وكتب بخطٍ متعرّج:

«الغفران أصعب من الطعن. لكنّه الشفاء الوحيد. إن متُّ... قولوا إنّي اخترت الغفران على الطائفة.»

المدينة تتنفس بصعوبة

في الخارج، تفرّق الجمع. بعضهم غادر خائفًا، بعضهم مزّق رايته، وبعضهم جلس على الرصيف لا يعرف إن كان مؤمنًا أم خائنًا.

الطبول صمتت، المشاعل انطفأت. بقي الدم هو النشيد الوحيد.

نهاية الفصل

جلست ليلى قرب يوسف، تمسح جبينه بقطعة قماش.

ـــ يوسف... هل تسمعني؟

ـــ أسمعكِ... وأسمع المدينة... لأول مرة بلا صراخ.

رفعت رأسها نحو المرآة المعلّقة على الباب. في الزجاج المرتجف رأت وجهين: وجهها، ووجه يوسف الشاحب. خلفهما، انعكاس مدينةٍ لم تعد تعرف إن كانت تطلب الطهر... أم الغفران.

على العتبة، بقي الدم علامةً لا تمحوها كلّ مياه الطوائف.

الفصل السادس: أصوات متشظّية

المدينة كجسد

بعد الطعنة، بدت المدينة جسدًا واحدًا يئنّ من كتفه. الأزقة لم تعد صاخبة كما اعتادت، بل متوترة كحلقٍ يحبس الكلام. رائحة الدم بقيت معلّقة في الهواء، كأن الريح ترفض أن تمحوها.

المساجد والكنائس على حدّ سواء قرعت أصواتها، لكن لا أحد أصغى. كانت المدينة مشغولة بجرحها الجديد.

في المجلس

اجتمع الشيوخ ورجال الطائفة في قاعةٍ مكتومة. الشيخ، والد يوسف، جلس على الكرسي الخشبي الكبير، لكنه لم يبدُ كبيرًا.

قال أحد الأعضاء:

— لا بدّ من إصدار بيان سريع: «الطعنة خطيئة فردية لا علاقة لها بالطائفة».

قال آخر:

ـــ بل نحمّل العاهرة المسؤولية. هي فتنةٌ تجذب الشبان.

هزّ الشيخ رأسه، عيناه غائرتان:

ـــ لكن الذي طُعن... ابني. كيف أُبرّئ الطائفة من دم ابني؟

ساد صمت ثقيل. الكلمات عالقة بين كبرياء الجماعة ودم الأبناء.

أصوات السوق

في السوق، كان الناس يتجادلون:

ـــ يوسف خان والده!

ـــ بل أنقذ وجه المدينة من عار أكبر.

ـــ ليلى سبب الفتنة.

ـــ بل ليلى مرآتنا... نحن الذين صنعناها.

بائعة الرمان جلست وسط النقاش، تعرض ثمارها مفتوحة:

ـــ من أراد الحقيقة، فليتذوّق. القلب لا يُكذب.ضحك بعضهم بسخرية، لكن آخرين أكلوا حباتٍ حمراء وسكتوا.

أم فادي

في بيتها، جلست أم فادي إلى جوار يوسف الجريح. تضمّد كتفه بأقمشة قديمة، وتقرأ أدعيةً جمعت بين آياتٍ من الإنجيل والقرآن. همست له:

ـــ لستَ ابني، لكنك كلّ أبنائي. هؤلاء الشيوخ سرقوا دمهم، فلا تسمح لهم أن يسرقوا دمك أيضًا.

ليلى جلست قربها، تشدّ على يد يوسف. فكّرت: «حتى الأمهات صرن طوائف، وهذه المرأة وحدها أمّ المدينة كلها.»

في الحمّام

القنديل لم يُطفأ منذ ليلة الطعنة. المرآة ما زالت معلّقة، تعكس وجه كل من يدخل. بعضهم يأتي سرًّا، يضع وردةً أو يشعل شمعة، ثم يرحل بسرعة خوفًا من العيون. آخرون يدخلون ليشتموا، ليلعنوا، ثم يعودون في اليوم التالي أكثر صمتًا.

الحمّام تحوّل من مأوى مهجور إلى قلبٍ نابض، يجتمع عنده الخائفون والفضوليون، العاشقون والكارهون.

يوسف بين الوعي واللاوعي

في هذيانه، كان يوسف يهمس بكلمات متقطعة:

— لا... طائفة... فوق الإنسان... الغفران... أقوى... من الدم.

كانت ليلى تكتب كلماته في دفترها كي لا تضيع.
شعرت أن الطعنة لم تجرحه وحده، بل شقّت المدينة كلها نصفين: نصف يطلب الانتقام، ونصف يطلب الغفران.

الشارع المنقسم

الأطفال كانوا يركضون في الأزقة، يردّدون ما يسمعونه من الكبار:

— ليلى قدّيسة!

— ليلى عاهرة!

— يوسف بطل!

— يوسف خائن!

الأغاني تحوّلت إلى هتافات صغيرة، تختلط بالضحك والدمع. المدينة لم تعد تعرف ماذا تعلّم أبناءها.

النهاية المفتوحة للفصل

في الليل، جلست ليلى وحدها في الحمّام. أمامها المرآة، وعلى الطاولة صحن رمانٍ جديد. كتبت في دفترها:

«اليوم... المدينة مرآةٌ مشقوقة. كل نصفٍ يرى نفسه ويكفُر بالآخر. لكن الدم على العتبة لا ينقسم. دم واحد... لجسد واحد. هل تتعلّم المدينة أن تجتمع على جرح، بدل أن تتمزّق على شعار؟»

رفعت رأسها نحو القنديل، وقالت:

— الليلُ طويل... لكن في العتمة تُولد الأسئلة. والأسئلة، لا الطوائف، هي التي تُنقذ المدن.

وخارج الجدران، بقيت الأصوات المتشظية تتنازع الشوارع كطيورٍ جريحة تبحث عن سماء.

الفصل السابع: المرآة والدم

المرآة كشاهد

منذ أن عُلِّقت المرآة في صدر الحمّام، لم تعد قطعة زجاج. صارت عينًا ثانية للمدينة.

كل من يدخل يرى نفسه مرتين: وجهه كما هو، ووجهه كما أنكره.

الدم على العتبة ظلّ يلمع في انعكاسها كأنه توقيعٌ لا يمحى.

في النهار، كانت الميليشيا تكتب على الجدران: «الطائفة أمّ المدينة».

لكن في الليل، كان شبّان مجهولون يكتبون تحتها بخطّ مرتعش: «والمدينة مرآة الإنسان».

ليلى والمرآة

جلست ليلى أمام المرآة، وجهها متعب، لكن في عينيها بريقٌ جديد. قالت لنفسها:

ـــ قالوا إنني عاهرة... والمرآة لم تُجب. قالت إنني إنسانة فقط.

لمست الزجاج بأناملها، كأنها تتحسس نبضه. رأت فيه يوسف ممدّدًا على سريرٍ قريب، جرحه يلتئم ببطء. رأت أيضًا أم فادي تحمل ماءً وتغسل الدم كما تُغسل وصمةً قديمة.

كتبت في دفترها:

«المرآة لا تُزيّن... المرآة تفضح. وهي لا تفضحني وحدي، بل تفضح مدينةً تتزيّن بشعارات وتُخفي جراحها في الأزقة.»

يوسف والمرآة

حين أفاق يوسف قليلًا، طلب أن يُجلسوه أمام المرآة. نظر طويلًا، ثم قال:

ـــ أرى أبي خلفي... لا في صورته بل في ظله. أرى الطائفة واقفة مثل شبح، لكنها أضعف من أن تمنع صورتي.

ابتسمت ليلى:

ـــ الطائفة ظلّ، والمرآة شمس. والشمس لا تخاف الظلال.

تنهد يوسف، وكتب بخطٍّ واهن في دفتره:

«لا بدّ من مرآة واحدة... تُجمع حولها كل الطوائف. الجسد هو هذه المرآة.»

السوق والمرآة

انتشر الخبر في السوق: «في الحمّام مرآة تكشف الحقيقة».

جاء الناس سرًّا ليروا.

رجلٌ تاجر، حين نظر، بكى وقال: «أنا أبيع الكذب منذ سنين.»

امرأةٌ عجوز رأت وجهها المجعّد، وقالت: «أجمل من كل زينة؛ لأنّه صادق.»

شاب من الميليشيا دخل ليشتم، فرأى يده المرتجفة، فغطاها سريعًا وغادر دون أن ينطق.

العجوز بائعة الرمان جلست قرب الباب، تبيع الثمار للزائرين. قالت لكل واحد:

ـــ انظر في المرآة ثم تذوّق حبة رمان... ستعرف أن قلبك لا يكذب.

الأب والمرآة

لم يستطع الشيخ أن يمنع نفسه من المجيء. جاء ليلًا متخفيًا، دخل الحمّام حين كان خاليًا إلا من ليلى.

نظر في المرآة. رأى نفسه شيخًا متعبًا، لحيته ثقيلة، لكن خلف عينيه دمعةٌ لم تجف منذ زمن.

قال:

ـــ هذه المرآة كاذبة...

ابتسمت ليلى:

ـــ بل صادقة... ولهذا تُنكرها.

ـــ أرى وجهي مثقلاً بالدم.

ـــ لأنك رفعت عصاك فوق القلوب.

ـــ وأرى يوسف في انعكاسي.

ـــ لأنه ابنك... ولأنك جزءٌ منه مهما أنكرت.

خرج مرتبكًا. للمرة الأولى، لم تُطعْه عصاه.

المدينة والمرآة

أصبحت المرآة حكاية في كل بيت.

بعضهم قال: «فتنة جديدة.»

وبعضهم قال: «أعظم اعتراف رأيناه.»

أطفالٌ رسموا دوائر على جدران الأزقة كأنها مرايا صغيرة.

نساءٌ كتبن أسماءهن قرب الأبواب بلا خوف.

رجالٌ جلسوا أمام الحمّام يناقشون: «هل نحن طوائف أم بشر؟»

المدينة بدأت ترى نفسها، لا كما تريد الطوائف، بل كما هي.

النهاية المفتوحة للفصل

في المساء، جلس يوسف وليلى وأم فادي قرب القنديل. صحن الرمان بين أيديهم، والمرآة تعكس وجوههم الثلاثة.

قال يوسف:

— الدم ما زال على العتبة، لكنه صار صلاة.

قالت أم فادي:

— والصلاة ليست كلمات... بل دمعةٌ صادقة.

قالت ليلى:

— والغفران ليس قرارًا من شيخ، بل مرآة نجرؤ أن ننظر فيها.

رفعت المرآة صوتها بصمتها، وكأنها تُعلن بداية عهد جديد: عهد يرى فيه الناس وجوههم بلا أقنعة.

.

الفصل الثامن: جراح المدينة

الشوارع تتكلم

لم تعد الجدران بيضاء ولا صامتة.

في كل زقاق ظهرت كتابات جديدة، بعضها بخط مرتعش، وبعضها بخط غاضب:

«الطائفة أمّنا.»

«الإنسان أبونا.»

«ليلى قدّيسة.»

«ليلى عاهرة.»

الجدار نفسه بدا كجسدٍ مثقوب: كل كتابة جرح، وكل جرح يُنادي بجرح آخر. المدينة لم تعد تحتمل الصمت، فتكلمت بالحبر والفحم.

يوسف بين الألم والمعنى

يوسف، وإن بدأت جراحه تلتئم، ظلّ يشعر أن كتفه أثقل من جسده كله. كلما تحرّك، عاد الألم يذكّره بالطعن.

قالت له أم فادي وهي تبدّل الضماد:

ـــ الجروح يا بني لا تلتئم بالقطن وحده، بل بما يُكتب عنها.

فأمسك دفتره وكتب:

«المدينة جُرحت في كتفي. كل خطوةٍ أخطوها تُذكّرني أنّ الطائفة حين تطعن، لا تصيب جسدًا واحدًا، بل تصيب جسدها نفسه.»

قرأته ليلى بصوت مرتجف وقالت:

ـــ إذن جرحك شهادة... لا لعنة.

انقسام المجلس

في المجلس، تصاعد الخلاف.

قال أحد الشيوخ:

ـــ لا يجوز أن تبقى المرآة، إنها فتنة تُفسد الناس.

ردّ آخر:

ـــ لكن الناس بدأوا يأتون إليها أكثر من المسجد والكنيسة. لو كسرناها، كسرنا قلوبهم.

وقف الشيخ والد يوسف صامتًا. عيناه غارقتان، وصوته مخنوق. لم يعد يعرف هل هو شيخٌ يُقرّر أم أبٌ يُعاقب نفسه.

الحارة الصغيرة

الأطفال كانوا يلعبون لعبة جديدة. يضعون مرآة صغيرة على الأرض، وينظر كل واحد في انعكاسه ويقول كلمة: «صادق»، «خائف»، «كاذب»، «إنسان».

ضحكاتهم كانت تحمل براءةً لم يجرؤ الكبار على ترديدها.

النساء والدم

في الليل، جاءت نساءٌ كثيرات إلى الحمّام. بعضهن جئن ليبكين في صمت، وبعضهن جئن يحملن شموعًا.

إحداهن قالت:

— كلنا ليلى.

أخرى قالت:

— كلنا أجساد متّهمة.

ضحكت ثالثة بمرارة:

— إذن الطائفة ستحتاج أن تهدم نصف المدينة.

ليلى نظرت إليهن وقالت:

ـــ إذا كان الجسد جريمة، فليكن الجسد سلاحنا. لا لنبيع، بل لنقول: نحن هنا... لسنا عارًا بل حياة.

الأب في صمته

جلس الشيخ وحده في بيته. أمامه الصحيفة الجديدة تحمل عنوانًا بارزًا: «فتنة المرآة تشتعل».

قرأها، ثم مزّقها. نظر في المرآة الصغيرة في غرفته، فرأى وجهًا منهكًا، دمعة محبوسة، وكتف ابنه المصاب يلوح في خياله.

تمتم:

ـــ أي ربٍّ هذا الذي لا يسع قلب ابني؟

لكن صوته ارتدّ عليه كصدى في كهف فارغ.

المدينة كجرح مفتوح

المدينة الآن لم تعد مدينة الطوائف فقط. صارت مدينة الجرح. كل شارع يتألم بطريقته.

بعض الناس يلعنون ليلى، وبعضهم يزورونها سرًّا ليشكروها.

بعضهم يكرهون يوسف، وبعضهم يرفعون صورته كبطلٍ صغير.

الحقيقة الوحيدة أن الدم على العتبة لم يجفّ، وأن المرآة ما زالت تعكس الوجوه بلا خوف.

النهاية المفتوحة للفصل

في دفترها كتبت ليلى:

«المدينة مثل جسدٍ مجروح. إذا ضغطت الطوائف على الجرح، نزف أكثر. وإذا غطّته بالرحمة، بدأ يلتئم. لكن المدينة لم تعلّم نفسها بعد كيف تلمس جراحها برفق.»

ثم نظرت إلى يوسف وقالت:

— جرحك وجرحي... واحد. فهل نكون نحن ضماد المدينة؟

ابتسم وهو يغمض عينيه:

— نعم... أو دمها الأخير.

وفي الخارج، كان صدى الطبول يعود ضعيفًا، متردّدًا، كأن المدينة نفسها بدأت تخجل من صوتها.

الفصل التاسع: الخوف والاعتراف

المرآة كمحكمة

لم يعد الحمّام المهجور مأوىً لليلى وحدها. صار مجلسًا جديدًا، غير معلن، يدخل إليه الناس سرًّا ثم يعودون بوجوهٍ مختلفة.

المرآة المعلّقة لم تترك لهم خيارًا. كل من وقف أمامها اكتشف أن انعكاسه لا يعرف الكذب.

امرأةٌ شابة رفعت غطاء رأسها ونظرت، ثم بكت:

— قالوا إنني عاقر... لكن المرآة قالت إنني أمّ، لأنني أحببت.

شابٌّ من الميليشيا دخل متردّدًا. نظر، فرأى يده ترتعش. صرخ:

— قتلتُ بريئًا باسم الطائفة!

ثم ركض خارجًا، كمن يهرب من قاضٍ لم يعطه فرصةً للاستئناف.

ليلى – صوت الاعتراف

جلست ليلى قرب القنديل، دفترها في حجرها، تكتب ما تسمعه من الناس. قالت:

ـــ هذه ليست اعترافات فردية، هذا تاريخ مدينة. الطوائف كتبت تاريخها بالدم، ونحن نكتبه الآن بالدمع.

وفي إحدى الصفحات دوّنت:

«كلّ جسدٍ وُصم، وكلّ قلبٍ أُهين، يطلب الآن حقّه في أن يُرى كما هو. المرآة لا تُصدر أحكامًا، بل تعكس فقط. والخوف، حين يُرى، يتلاشى نصفه.»

يوسف – بين الحياة والموت

يوسف كان يجلس إلى جوارها، جرحه ما زال يوجعه، لكن صوته صار أوضح.

قال للجموع:

ـــ أنا ابن شيخ الطائفة، وقد خنت طائفتي حين اخترت إنسانة. إذا كان هذا خيانةً، فأنا خائن.

سكت قليلًا، ثم أضاف:

ـــ لكنّي لم أخن الله... لأن الله لا يُختصر في طائفة.

كان صوته ضعيفًا لكنه ارتجف في صدور الحاضرين. بعضهم بكى، وبعضهم رفع رأسه بشجاعةٍ لم يعرفها من قبل.

أصوات النساء

نساء الحيّ بدأن يأتين جماعات. إحداهن رفعت ثوبها قليلًا لتُري ندبةً قديمة وقالت:

— هذا جسدي... كلهم قالوا إنني نجسة. لكنّي ما زلتُ أمشي وأُرضع ابني. من النجس إذن؟ أنا أم الدم، أم من يطعنه؟

ضحكات النساء امتزجت بالدموع. كان في الحمّام لأول مرة شعورٌ بالتحرّر: أن يُقال ما لم يُقَل أبدًا.

الأب يراقب

من بعيد، وقف الشيخ والد يوسف. لم يدخل، لكنه سمع الاعترافات تتردّد كأصداء. لم يعرف هل يغضب، أم يبكي.

تمتم لنفسه:

— هذه ليست محكمة... هذا فوضى.

لكن قلبه كان يعرف أنها أوضح من كل بياناته التي قرأها.

الأطفال

في المساء، دخل أطفالٌ إلى الحمّام. أحدهم وقف أمام المرآة وقال ضاحكًا:

ـــ أنا لست طائفة، أنا ولد فقط.

ضحك البقية، لكن العبارة بقيت كجرس صغير يرنّ في عقول الكبار: «أنا ولد فقط.»

المدينة كبيت اعتراف

انتشرت الحكايات. كل من يزور المرآة يخرج مختلفًا:

رجل صار أقل عنفًا.

امرأة رفعت رأسها.

شاب تمرد على شيخه.

طفلة كتبت اسمها على الجدار.

الحمّام صار «بيت الإنسان» قبل أن يُعلن اسمه.

النهاية المفتوحة للفصل

جلست ليلى قرب يوسف، نظرت إلى المرآة وقالت:

ـــ كم أشفق على الطوائف... ما أصعب أن تراها مرآة!

قال يوسف مبتسمًا رغم الألم:

ـــ الطائفة تعيش بالخوف. والاعتراف يُميت الخوف. لهذا يخافون المرآة أكثر من أي سلاح.

في دفترها كتبت:

«الخوف يسقط حين نجرؤ أن نقول الحقيقة. والاعتراف ليس ضعفًا... بل ولادة جديدة.»

وخارج الحمّام، كان الليل يمرّ على بيوت الطائفة. بعضهم أغلقوا النوافذ خوفًا من المرآة، وبعضهم فتحوها لأول مرة، كأنهم يريدون أن يروا وجوههم قبل أن يروها في الزجاج.

الفصل العاشر: زمن بلا جدران

الوقت المكسور

لم تعد الأيام تُقاس بالشمس وحدها.

المدينة تعيش زمنًا جديدًا: زمنٌ ينقسم بين ما قبل المرآة وما بعدها، بين دمٍ سال على العتبة ووجوهٍ لم تعد تستطيع أن تكذب على نفسها.

حتى الأذان والجرس لم يعودا متقابلَين كعدوّين، بل كصوتين يتردّدان في فراغٍ واحد. بدا كأن الجدران التي تفصل الأزقة فقدت معناها.

ليلى والذاكرة

جلست ليلى عند صحن الرمان، حبّاته تلمع كالنجوم الصغيرة. قالت في دفترها:

«كنتُ أظن أن الماضي قبرٌ مغلق. لكن المرآة قالت لي إن الماضي يمشي في الحاضر، والحاضر يفتح أبوابه

للمستقبل. لم أعُد امرأةً في زمنٍ واحد. أنا امرأة عبر كل الأزمنة. جسدي بيتٌ لا جدران له.»

ثم رفعت رأسها، رأت وجوه النساء اللواتي يأتين كل ليلة: بعضهن فقدن أزواجهن في الحرب، بعضهن بعن أجسادهن، بعضهن عشن في الصمت. كلهن بدأن يشعرن أن الزمن ليس عدوًّا بل شاهدًا.

يوسف والهذيان

يوسف لم يشفَ بعد. لكن جرحه صار ساعةً جديدة: كل نبضة في كتفه تقرع مثل جرسٍ صغير، تذكّره أن الزمن لا يقاس بالسنوات بل بالدم الذي يترك أثرًا.

همس لليلى:

— أشعر أني عشت مئة عام في ليلة.

قالت:

— لأن الزمن حين ينكسر... يُعيدنا إلى أصلنا.

كتب في دفتره:

«الطائفة حبسَتنا في ساعةٍ ضيقة. المرآة فتحت الزمن مثل نافذة. رأيت طفولتي، ورأيت شيخوختي، ورأيت وجه ابني الذي لم يولد بعد. الزمن بلا جدران... أوسع من كل شاراتكم.»

الشارع والزمن

في الشوارع، الناس صاروا يتحدثون عن «الأمس» و«اليوم» بطريقة مختلفة.

«أمس كنا نهتف مع الطائفة... اليوم نحن صامتون أمام المرآة.»

«أمس رأينا ليلى عارًا... اليوم نراها إنسانًا.»

الأطفال في الأزقة بدأوا يسألون آباءهم:

— هل الله كان في زمن واحد أم في كل الأزمنة؟

والآباء صمتوا، لأنهم لم يتعلّموا الإجابة.

الأب والزمن المكسور

الشيخ والد يوسف جلس وحده أمام ساعته القديمة. عقاربها كانت تدور، لكن الزمن داخله متوقف عند لحظة الطعنة.

تساءل:

— أي زمن هذا الذي يضع ابني في مواجهة أبيه؟ أي زمن هذا الذي يجعل امرأةً متَّهمة أقوى من شيخ الطائفة؟

ثم سمع داخله صوتًا لا يعرف مصدره: «الزمن لا يعترف بالجدران... فإما أن ترى، أو تبقى أعمى إلى الأبد.»

ليلة بلا جدران

في الحمّام، اجتمع العشرات. جلست ليلى في الوسط، المرآة خلفها، يوسف إلى جوارها. قالت للجموع:

ـــ الطائفة تقول إن الزمن ملكها. لكن الزمن ليس ملكًا لأحد. نحن الذين نصنعه. إن أردنا، نغلقه في ساعة دم. وإن أردنا، نفتحه كبحرٍ بلا شاطئ.

وقفت امرأة شابة وقالت:

ـــ كنتُ أسيرة ماضٍ أسود... لكني أريد أن أبدأ من جديد.

وقف رجل مسنّ وقال:

ـــ كنتُ قاتلًا باسم الطائفة... واليوم أريد أن أموت إنسانًا فقط.

ضحكات وبكاء. الزمن في تلك اللحظة لم يكن خطًا مستقيمًا، بل دائرة مفتوحة.

النهاية المفتوحة للفصل

حين انطفأ القنديل قليلًا، ارتفعت ألسنة من الشموع.
وجوه كثيرة انعكست في المرآة، بعضها خائف وبعضها جريء.

يوسف همس:

ـــ نشعر أننا في زمن آخر.

أجابت ليلى:

ـــ لا زمن آخر... بل زمن بلا جدران.

كتبت في دفترها:

«حين تتفتّت جدران الطوائف، يكتشف الإنسان أنه عاش دائمًا في بيت واحد: بيت القلب. والزمن هناك لا يُقسَّم، بل يُعاش كاملاً.»

وفي الخارج، كان الفجر يتهيّأ مرة أخرى، لكن هذه المرة بلا طبول، كأنه يتعلم لغةً جديدة للمدينة.

الفصل الحادي عشر: بذور الغفران

المدينة بعد الصدمة

منذ الطعنة، لم تعد المدينة كما كانت. الأزقة التي اعتادت الشعارات الجافة بدأت تسمع كلمات مختلفة:

«الغفران.»

«الرحمة.»

«الإنسان.»

لكنّ هذه الكلمات لم تمرّ بسلام. البعض سخر منها، وآخرون اعتبروها مؤامرة جديدة. ومع ذلك، كان واضحًا أن البذور قد زُرعت.

مجلسٌ منقسم

في قاعة المجلس، جلس الشيوخ متواجهين.

قال أحدهم:

— يجب أن نهدم الحمّام غدًا، وإلّا صارت المرآة دينًا جديدًا!

ردّ آخر بهدوء:

ـــ المرآة ليست دينًا... هي مجرد زجاج. لكن الناس بدأوا يجدون فيها ما لم يجدوه عندنا.

ضرب شيخ ثالث الطاولة بعصاه:

ـــ من يغفر، يضعف. ومن يضعف، يُسقط الطائفة.

أما والد يوسف فظلّ صامتًا، ينظر إلى يده التي ترتجف. لم يعرف بعد هل هو شيخٌ يدافع عن سلطته أم أبٌ يخاف أن يفقد ابنه نهائيًا.

يوسف والشفاء البطيء

يوسف بدأ يخطو خطواته الأولى بعد الجرح. كتفه ما زال يئنّ، لكنه ابتسم حين رأى الأطفال يركضون في الساحة يرددون:

ـــ الغفران أقوى من الطائفة!

جلس قرب ليلى وقال:

ـــ لم أتخيل أن كلمةً واحدة يمكن أن تصبح لعبة أطفال.

ابتسمت:

ـــ كل شيء يبدأ كلعبة... حتى الطوائف. لكن هذه المرة، اللعبة أصدق.

كتب في دفتره:

«الدم الذي نزف ليس لعنة، بل بذرة. إن سُقي بالغفران، ينبت شجرة. وإن سُقي بالخوف، ينبت سيفًا.»

ليلى والنساء

النساء صرن يأتين أكثر من قبل. جلسن حول ليلى، بعضهن يروين حكايات صمتٍ طويل، وبعضهن يضحكن للمرة الأولى منذ سنوات.

قالت ليلى لهن:

ـــ لسنا أبرياء تمامًا، ولسنا مذنبات تمامًا. نحن فقط بشر. الغفران يبدأ حين نرى أنفسنا بلا أقنعة.

إحدى النساء همست:

ـــ غفرتُ لزوجي الذي ضربني... لكن لم أغفر لنفسي لأنني سكتُّ.

قالت ليلى:

ـــ الغفران يبدأ من هنا... من أن نغفر لأنفسنا أولًا.

بائعة الرمان

العجوز التي تبيع الرمان جلست عند باب الحمّام، تنادي المارّة:

— اشتروا ثمرة... وخذوا معها دعاء.

كان الناس يتوقفون ليأخذوا الحبّات كأنها تذكرة عبور صغيرة من الكراهية إلى الغفران.

الأب والاعتراف المؤجل

في بيته، جلس الشيخ أمام المرآة الصغيرة التي لم يجرؤ أن يكسرها. رأى وجهه متعبًا، دمعة معلّقة، وذكرى يوسف وهو يصرخ: «لا طائفة فوق الإنسان.»

تمتم:

— ربما... ربما كان الحق معه.

لكن صوته كان بالكاد يسمع. لم يجرؤ بعد أن يعترف علنًا.

بداية الغفران

في المساء، اجتمع الناس في الحمّام. المرآة تعكس وجوهًا جديدة: شابة تعترف أنها أحبّت رجلًا من طائفة أخرى، عجوز يقول إنه قتل باسم الشرف ويريد الغفران، طفل يضحك ويقول: «أنا إنسان فقط.»

وقفت ليلى وقالت:

ـــ الغفران ليس نهاية... الغفران بداية. إذا سامحنا، لا نمحو الجرح، بل نتركه شاهدًا.

يوسف وقف بجانبها رغم الألم، رفع يده وقال:

ـــ إذا كان جسدي ثمنًا لهذه البداية... فأنا أقبل.

النهاية المفتوحة للفصل

في الليل، كتبت ليلى في دفترها:

«البذور صغيرة، لكنها حقيقية. الطوائف ما زالت قوية، والخوف ما زال حاضرًا. لكن في قلب المدينة، هناك الآن شيء لم يكن من قبل: شتلة صغيرة اسمها الغفران.»

ورأت في المرآة انعكاسًا جديدًا: مدينةٌ لا زالت متعبة، لكن في عينيها بريق يشبه أول الربيع.

الفصل الثاني عشر: البيان الأخير

المدينة على العتبة

الفجر الأخير لم يكن مثل الفجر الأول.

لا طبول ولا مشاعل.

المدينة خرجت بوجوه متعبة، عيونها مُثقلة، لكن في داخلها بريقٌ صغير. كأنها أرادت أن ترى: هل يمكن للجرح أن يصبح بداية؟

اجتمع الناس أمام الحمّام، حيث ما زالت المرآة معلّقة، وصحن الرمان نصفه ممتلئ ونصفه الآخر فارغ.

صوت ليلى

وقفت ليلى في صدر المكان. ثوبها الأسود صار أثقل من جسدها، لكن عينيها أوسع من كل الشوارع. رفعت دفترها وقالت:

— كتبتم عليّ أن أكون عاهرة، ثم قدّيسة، ثم مرآة.
لكني اخترت أن أكون إنسانة. جسدي ليس ملكًا لكم، ولا عارًا عليكم. جسدي بيت، والبيت لا يُقتحم باسم الطهارة ولا باسم الدين.

رفعت المرآة، وجهها يلمع في انعكاسها:

ـــ هذه أنا... وهذه أنتم. إذا قتلتموني، قتلتم أنفسكم. إذا غفرتم لي، غفرتم لأنفسكم.

يوسف يكتب

يوسف وقف بجانبها، كتفه لا يزال مضمدًا. أخرج ورقة من دفتره وقرأ بصوتٍ مرتجف:

«المدينة لا تُطهَّر بالدم. المدينة تُطهَّر حين نكفّ عن تسمية بعضنا نجسًا وبعضنا طاهرًا.

الطائفة قيد، والإنسان أوسع من كل قيد.

إن أردتم خلاصًا، فلا تبدأوا بالقتل، بل بالغفران.

الغفران ليس ضعفًا... الغفران شجاعة.»

صوته تردّد في الأزقة كصدىٍ جديد، لم يجرؤ أحد أن يسميه خيانة.

الناس

امرأة رفعت يدها وقالت:

ـــ غفرتُ لجاري الذي سرق خبزي.

رجل صرخ:

ـــ غفرتُ لأخي الذي طعنني بكلمة «خائن».

طفلة ضحكت وقالت:

ـــ غفرتُ لأنكم جعلتموني أبكي.

شيئًا فشيئًا، تحوّل الصمت إلى اعتراف جماعي. لم يكن غناءً ولا هتافًا، بل حوار قلوب خرجت من أقفاصها.

الأب

الشيخ والد يوسف تقدّم بخطوات بطيئة. وقف أمام المرآة. رآى وجهه ولحيته وعصاه، ورأى ابنه إلى جانبه، ورأى نفسه مُثقلاً بالدم. دمعة واحدة سالت، لم يستطع أن يمنعها.

قال بصوت متهدّج:

ـــ كنتُ أظن أن الطائفة بيت. واليوم أدركتُ أنها قفص. سامحني يا بني.

اقترب يوسف، وضع يده على كتف أبيه:

ـــ الغفران لك قبل أن تطلبه.

البيان الأخير

رفعت ليلى دفترها مفتوحًا وقالت:

«البيان الأخير:

المدينة ليست طوائف، المدينة جسد واحد.

الجسد ليس عارًا ولا قداسة، بل حياة.

لا طائفة تعلو على إنسان.

لا شرف يبرّر قتل امرأة.

لا دين يعلو على الغفران.

إذا أردتم تاريخًا، فاكتبوا: في هذا الحمّام المهجور وُلدت مدينة جديدة. مدينة لا تحكمها الطوائف، بل المرآة والقلب.»

النهاية المفتوحة

انحنى الجمع، بعضهم بالبكاء، بعضهم بالصمت. المرآة انعكست فيها وجوه كثيرة: وجوه خائفة، وجوه غاضبة، وجوه مبتسمة. لكنها هذه المرة لم تكن وجوهًا منفصلة، بل وجهًا واحدًا كبيرًا... وجه المدينة.

جلس يوسف إلى جوار ليلى، أم فادي وبائعة الرمان خلفهما. رفعت ليلى حبّة رمان وقالت:

— هذه ثمرة قلب المدينة... فلنأكلها معًا.

تقاسموها. الحبّات الحمراء لم تعد دمًا، بل وعدًا.

وفي الدفتر الأخير، كتبت ليلى:

«كنتُ جسدًا مستباحًا في زمن الطوائف، وصرتُ مرآة في زمن الغفران.

وإذا أرادوا أن يكتبوا عني، فليكتبوا: لم أكن عاهرة ولا قدّيسة... كنتُ إنسانة.

والمدينة تعلّمت أن تكون كذلك.»

انطفأ القنديل، لكن الضوء بقي في الوجوه.